القلاع فى الحروب الصليبية

دكتور عبد الرحمن زكى

مقدمة

تناثرت الحصون والقلاع فى الشام بشكل يدعو إلى الدهشة ، منذ أيام الحروب الصليبية وما قبلها ، بين جزيرة « الجرية » [1] فى شمال خليج العقبة (بين مر فأى طابة والعقبة) وسلسلة جبال أمانوس فى شمال سورية . ومع أن بعض تلك الحصون قد شيد على بقايا قلاع الرومان والبيزنطيين والعرب قبل الغزو الصليبى بمئات السنين ، فإن ما بنى منها فى أثناء الحروب الطويلة فى جبهتى المسلمين والفرنج زاد على ما عرفته تلك البقاع من قبل ، سواء فى ضخامة العدد أو من ناحية الطراز المعمارى .

شيد المسلمون والصليبيون عشرات القلاع ، فهم لم يتركوا مضيقاً أو سفح جبل يشرف على واد أو نهير دون أن يبنوا قلعة ، تشرف على هذا أو ذاك . ولم يتركوا مدينة دون أن يشيدوا فى خارجها أو على الجبل الذى يشرف عليها حصناً منيعاً . لقد هيدوا كثيراً كما فعل الرومان من قبل فأحاطوا المدن بالأسوار والأبراج المنيعة ، وكثرت المعارك التى نشبت حولها أو فى داخلها ، وكم من المرات تبودلت بين الخصمين . وما تلك الحصون إلا شهود حق على النضال المرير الذى ساد أرض المعروبة أجيالا طويلة .

بالقرب من منابع الأنهار : الأردن والليتانى والأورنت ، قاومت القلاع مهاجميها أو من حاولوا الاقتراب منها . كم من الأبراج الكبيرة أو الصغيرة التى شيدت فى السهول لأغراض المراقبة والحراسة ! كم من الكهوف التى نقرت فى صخور الجبال قاومت بعنف كل من حدثته نفسه بالإستيلاء عليها ! كما حدث فى حبيس جلدق [2] وتيرون النها [3] . لقد أفاد المهاجم والمدافع من طبيعة البلاد وتضاريسها ،

---

(١) هى الجزيرة المعروفة فى كتابات مؤرخى الحروب الصليبية باسم Ile de Graye (أو جزيرة فرعون) وتقع فى شمال خليج العقبة وتحتوى اليوم على أطلال حصن قديم .

(٢) تكتب أحياناً حبيس جلدق وهى القلعة الصليبية التى تعرف باسم بلفوار Belvoir أو شقيف أرنول وتقع بالقرب من بانياس .

(٣) يقع حصن تيرون إلى شمال قلعة الشقيف على بعد بضعة أميال ، وتعرف اليوم بقلعة نمرود .

ولم يترك الصليبيون موطأ قدم على الساحل الفينيقى القديم دون أن يختاروا بقعة تصلح لإقامة حصن أوبرج للمراقبة والمقاومة . . حتى الجزر الصغيرة شيدوا عليها الحصون كما فعلوا فى إنفه (Infeh) جنوبى طرابلس على الشاطىء . وقد عاونتهم طبيعة الأرض على تنفيذ ما أرادوه .

كانت حماسة الصليبيين الدينية وآمالهم الطامحة فى امتلاك البلاد المقدسة ، الحافز الأول لهم فى بناء عدد يذكر من القلاع . . تلك التى مازالت إلى اليوم محطاً لدراسة رجال الآثار ، وكان أكثرها نماذج رائعة لأساليب العمارة الحربية التى اتسم بها ذلك العصر ، أى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

اتخذت بعض تلك القلاع ، طراز البناء الشرقية . . . شيد بعضها فى عصور الرومان ، وبعضها فى أيام البيزنطيين أو العرب ، وبعضها من طراز الغرب ، ولا سيما الطراز الفرنسى .

لقد غصت سورية وفلسطين وشرق نهر الأردن ، فى الصحراء الجرداء بعشرات القلاع ، التى اتسمت كلها بروح الإبتكار والإنسجام مع شكل أرض البلاد . ولقد استطاع المحاربون أن يؤلفوا من الحجارة تاريخاً للعمارة الحربية فى القرون الوسطى ، وتاريخاً حربياً أيضاً ! فهناك على ربوة تطل على عيون أدونيس ، شيدوا حصن المنيطرة (Le Moinestre) [1] على إرتفاع ستة آلاف قدم . ولذلك يعلو قمتها الثلج معظم أشهر السنة . تنهض فى جلال لتراقب ممراً فى وادى البقاع . وهى فى موقع عزيز المنال يصعب اقتحام جدرها .

وهناك فى طرطوسة على الساحل شيد الصليبيون فى داخل قلعتها كاتدرائية فى الأسلوب البرجندى . وإلى وراء اللاذقية نحو الداخل فى بقعة وعرة جداً ، عند قلعة صهيون نقروا ١٧٠٫٠٠٠ من أطنان الحجر الأصم ، ليزيدوا مناعة القلعة التى أقاموها على قمة الجبل . كما أنهم قد أنشأوا فى قلعة المرقب مخازن فسيحة تسع عتاد ألف رجل يقاسون ظروف الحصار العنيف الذى امتد حوالى خمس سنوات .

---

(١) أعاد الصليبيون بناءها بالقرب من أفقا وقد شيدت لحراسة المعبر الجبلى الذى يربط بين جبيل وبعلبك ، كانت حصناً عربياً غير أن طغتجين تنازل عنه للفرنجة عام ١١٠٩ .

إنك إذا قمت بجولة لزيارة تلك الحصون التاريخية من شمال سورية إلى أقصى النقب جنوباً ، ومن الشرق عند الفرات إلى ساحل البحر الأبيض لأدركت فى الحال ذلك الدور الهام الذى قامت به تلك القلاع ، فى تلك البقعة بأسرها على مدى التاريخ والتى نشبت على أرضها أعنف المعارك بين الشرق والغرب .

لماذا شيدت الحصون ؟

ذلك العدد الكبير من القلاع الذى مازال ناهضاً إلى اليوم فى بلاد العروبة يجعلنا نتساءل : لماذا شيد البيزنطيون والعرب والصليبيون هذا العدد الكبير من تلك الحصون ؟ أليس عملهم هذا مبالغة وإسرافاً فى خطة إقامة الحصون وحشد الرجال فيها .

ربما كان من محض الصدف أن جاءت الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٧ م) إلى سورية فى الوقت الذى بدأ فيه بناء الحصون يزهر فى أوروبا ، ذلك العصر الذى أطلق عليه عصر القلاع[١] . صادف هذا عصر الإقطاع الذى اتسم ببناء الحصون ، فكان لكل إقطاعى قلعته يحمى نفسه فيها ومعه أتباعه وعتاده .

ولم تكن الحرب الصليبية إلا صورة متقدمة للاقطاع الأوربى فى الشرق الوسيط . وقد يمكن إيضاح ذلك الموقف فى صورة بينة ، إذا أدركنا وضع المملكة اللاتينية فى الشرق .

عبرت جيوش الحملة الصليبية الأولى جبال طوروس متجهة إلى سورية فى عام ١٠٩٧ م ، وغادرت آخر العملات الأرض المقدسة فى أغسطس عام ١٢٩١ م أى بعد سقوط عكا بنحو ثلاثة أشهر[٢] . وكانت المملكة اللاتينية التى عمل الصليبيون كل مافى وسعهم للحفاظ عليها بنجاح متفاوت قرابة مائتى عام ذات شكل شاذ . فقد كان طبيعة موقع دولتهم مكشوفاً تجعلهم معرضين للهجوم عليها . وكانت أراضيهم الممتدة من الجنوب إلى الشمال تضم مملكة بيت المقدس ، وإمارة طرابلس وإمارة

---

(١) شيد برج لندن فى إنجلترا فى عام ١٠٨٧ م ، وأضيفت إليه مبان كثيرة وهو من أهم معالم لندن حتى اليوم .

(٢) قاومت جزيرة أرواد الحصينة التى تقع أمام طرطوسة إلى عام ١٣٠٣ م .

أنطاكية وكونتية الرها التى استقرت فى حدود خمسين سنة يبلغ امتدادها من أربعمائة إلى خمسمائة من الأميال تقريباً . وإذا استثنينا البقعة الشمالية منها لوجدناها أرضاً ضيقة خطيرة يتراوح عرضها بين الخمسين والسبعين من الأميال ، فقد كان امتداده إمارة طرابلس عرضاً مثلا لا يتجاوز ٢٥ ميلا فقط ، وعلى الجانب الصحراوى والطويل لتلك الدولة الساحلية بقيت المدينتان الإسلاميتان والقويتان ، حلب ودمشق تناهضان تلك الدولة الدخيلة ، ولم يستطع الصليبيون مطلقاً الاستيلاء عليهما ، فكانتا طوال مدة الغزو الصليبى بمثابة سيف مصلت عليها باستمرار كشوكة فى جانبها . بل وأكثر من ذلك كانتا قاعدتين هامتين ، كان المسلمون يوجهون منها هجماتهم العنيفة المتكررة كلما رغبوا وكما سمحت ظروفهم الحربية .

ولاشك أن الموقف الحربى العام كان يتغير تماماً لو أن الصليبيين — بدلا من اندفاعهم فى اتجاه الساحل وإلى الجنوب نحو بيت المقدس والاستيلاء عليه — كانوا اتجهوا نحو الشرق واستولوا على حلب ، ثم دمشق مفتاح سورية فى ذلك الحين . ولكن ضاعت الفرصة منهم ، وكان من المحقق فى النهاية أن يخسر الفرنج البلاد المقدسة كلها . فمن المحتمل إذا كانوا استولوا على حلب ودمشق لاطمأن الصليبيون إلى بقاء دولتهم . فان الصحراء تكون حداً منيعاً يفصل دولتهم عن هجمات المسلمين من الشرق . بيد أن ذلك لم يكن شيئاً يسيراً . . فان هناك مايقرب من ثلاثمائة ميل فى الصحراء القاحلة التى حرمتها الطبيعة من الماء ، لايستطيع جيش فى العصر الوسيط أن يقوم فيها بعمليات القتال بنجاح إلا إذا أنجز خطته بسرعة .

وفضلا عن ذلك كان وجود الصليبيين يهدف إلى تجزئة الدول الإسلامية ، وفصل بعضها عن بعض ، لكى لاتستطيع التعاون فى إطار من الوحدة . . لذلك لم تتعاون القاهرة ، أو توحد خطتها مع بغداد فى سبيل القضاء على دولة الفرنج ، إذ ليست هناك طرق مواصلات جديدة وقصيرة تيسر لهما ذلك التعاون ، فضلا عن الاختلاف المذهبى فى البلدين حينذاك .

وأدرك الصليبيون خطأ خطتهم ، ولكن جاء ذلك متأخراً جداً وضاعت عبثاً جهودهم حينما فشلوا مراراً فى الاستيلاء على دمشق . وعلى ذلك كان يواجه الصليبيين باستمرار عدو قوى بجنوده السريعة الحركة ، عدو يسدد ضرباته فى أى وقت

شاء ضد الجانب المهدد من ناحية تلك المعاقل الحصينة ، ولذلك كان من الضرورى أن يلجأ الصليبيون إلى سياسة بناء تلك السلسلة المنظمة من الحصون المنيعة .

وكان ثمة سبب حيوى آخر اضطر الصليبيون من أجله إلى بناء الحصون والقلاع ، وهو حاجتهم الملحة إلى المزيد من المحاربين . وقد فطنوا إلى تلك الحاجة عند ما أرادوا تعديل خطتهم للاستيلاء على خط حلب — دمشق والاندفاع إلى قلب البلاد الإسلامية . والمعروف أن الجيش الصليبي الذى خرج من نيقية فى عام ١٠٩٧ كان عرمرماً إذا نظرنا إليه بمقياس الجيوش المعاصرة إذ ذاك . ولكن معركة « دوريليوم »[1] وقسوة الطبيعة فى الأناضول أثناء الصيف كبدت الصليبيين خسائر كبيرة ، فنقص تعداد قواتهم . وعلاوة على ذلك فإن قواتهم التى حاصرت أنطاكية قدرت بحوالى الخمسين ألفاً ، يضاف إلى هـذا أنه فى الوقت الذى كادت فيه الحملة تحقق أهدافها بدأ قادتها الواحد بعد الآخر ينسلخ عن الحملة برجاله ، وكان كل منهم يهدف إلى إنشاء إقطاعيات جديدة فى الدولة التى كسبوها . فمثلا استقر بلدوين (فلاندرز) فى الشمال الشرقى إلى الرها . وفضل بوهيموند ورجاله من أهل جزيرة صقلية البقاء فى منطقة أنطاكية ، فلم يصل من القوات الصليبية جميعها إلى بيت المقدس (عام ١٠٩٩ م) سوى ١٥٠٠ فارس وقرابة ١٥٠٠٠ مشاة ، ثم أنه بعد سقوط القدس تحقق الهدف الأول من الحملة الصليبية عاد معظم الفرنج وأتباعهم إلى أوروبا ، بينما بقى « جودفرى دى بيون » لإدارة مملكة بيت المقدس ومعه ثلاثمائة من الفرسان . وليس يخاف أنه قد يستطيع عدد من الفرسان القلائل على كسب المعارك لكنهم لا يستطيعون بعد ذلك الحفاظ على دولتهم . ولذلك كانت حاجة الصليبيين إلى الإمداد بالرجال ملحة باستمرار فى أوروبا . ولم يكن هذا الإمداد دائماً كافياً لأنه كان صغير العدد ومحدوداً .

صحيح أن الحملة الصليبية الأولى كانت ضخمة العدد ، ولربما كان فى استطاعتها أن تغير مجرى تاريخ الدولة اللاتينية ، لولا ما صادفها من المحن فى آسيا الصغرى فى عام ١١٠١ ، ثم جاءت فى أعقابها الحملة الصليبية الثانية — التى قدر عدد رجالها

---

(١) نشبت هذه المعركة بالقرب من المدينة المعروفة بهذا الاسم بين السلاجقة والصليبيين وذلك فى عام ١٠٩٧ وهزم فيها السلاجقة .

بحوالى ١٥,٠٠٠ من المحاربين . وفى ذات الوقت اتسعت رقعة البلاد المحتلة ، وتناقص عدد رجال الحاميات « نسبياً » ... ولذلك أمام هذا النقص الشديد فى الرجال عالج الصليبيون الموقف الحربى بالالتجاء إلى بناء الدفاعات الحصينة الاستعاضة بها عن جنود الحاميات . ولا يخفى أن الجنب الأيسر للصليبيين كان معرضاً دائماً لهجمات المسلمين المفاجئة .

لذلك لم يكن هناك سوى علاج واحد للافاة المتاعب .. ألا وهو مضاعفة الجهود لبناء القلاع والحصون كما ذكرنا .

ولكى يحتفظ الصليبيون بمواطىء أقدامهم على شاطىء لبنان ، كان عليهم أن يحتفظوا بسيادتهم على البحر لكى يبقوا على الصلات التى تربطهم بمواطنيهم فى الغرب ، ولكى يحظوا بعطفهم فيواصلون إمدادهم بالرجال . فلقد أحس الصليبيون أنهم يستطيعون الحفاظ بممتلكاتهم إذا استمر سيل المساعدات بالعتاد والرجال يأتيهم من أوروبا ، وإذا ظل أعداؤهم متفرق الكلمة لا يوحدهم زعيم قوى . فكان عليهم إقامة التحصينات الساحلية . لكى يؤمنوا العمليات البحرية . ولذا فإنهم أقاموا عند مداخل الموانىء البحرية فى عكة وصور وصيداً ، وجبيل ومدن بحرية أخرى أبراجاً عند الحاجز الذى يقاوم الموج ، أو على جزر صغيرة بالقرب من مداخل هذه الموانىء . فشيدوا سلسلة من الأبراج التى كانوا يستخدمونها للمراقبة على طول الشاطىء اللبنانى لكى يؤمنوا الاتصال بينها . وقد بقى من هذه الأبراج إلى يومنا هذا تسعة أبرزها برج جبيل القائم على هضبة جنوبى شرق البلدة . وجميع هذه الأبراج تقوم على مواقع أبراج أو قلاع قديمة . ومواد البناء التى بنيت بها كانت أنقاض تلك الأبراج . وكذلك شيد الصليبيون قلاعاً تحيط بالموانىء من جهة البر .

أما فى طرابلس وصور وعسقلان حيث كانت المقاومة عنيفة شديدة وطويلة الأمد ، فإن الصليبيون بدأوا ببناء قلاع كهذه فى زمن مبكر . وكانت هذه القلاع التى بنوها من العوامل التى عجلت فى إخضاع المدن والاستيلاء عليها . وبقايا قلاع الصليبيين فى جبيل هى أول ما يسترعى انتباه السائح فى تلك المدينة[1] وجميع هذه القلاع

---

(١) Max Van Berchem and Edmond Fatio : Voyage en Syrie, vol. 1, Paris, 1914, pp. 108-10.

والحصون الصليبية فى لبنان يعود زمن بنائها إلى القرن الثانى عشر ، وبعضها إلى القرن الثالث عشر[١] .

أما قلعة البحر فى صيدا ، فإنها شيدت على جزيرة صغيرة عام ١٢٢٧/٢٨ م ، وكان يربطها بالمدينة جسر طوله ٨٥ ياردة لا يزال قسم منه قائماً إلى يومنا .

ولما أخذ الملك لويس التاسع يرمم حصونها وقلاعها استعمل مواد البناء ذاتها التى كان الرومان والفينيقيون قد استعملوها فى بناء تحصينات المدينة . وفى الواقع أن أكثر الحصون والقلاع اللبنانية التى أقامها الصليبيون لم تكن سوى إصلاح أو إعادة بناء حصون وقلاع أقامها ، إما البيزنطيون أو الرومان أو ربما الفينيقيون أنفسهم . وهذه القلاع ذاتها رممها المماليك وأعادوا بناءها فى عصر تال .

ذلك أن مواقعها الإستراتيجية الممتازة يجب أن تكون قد استرعت انتباه العسكريين قبل وصول الصليبيين بأزمنة كثيرة . فإن الإدريسى الرحالة والجغرافى المغربى (ت ١١٦٦) لمازار هذه البلاد قبل الفترة التى نحن بصددها ذكر ثلاث قلاع بين صيدا وبيروت وستة عشرة قلعة بين بيروت واللاذقية [٢] .

مراحل بناء القلاع الصليبية

تجلى أمام الفرنج الذين استقروا فى البلاد عقب سقوط القدس حقيقة واضحة هامة . فإنه بالرغم عن استطاعتهم إنشاء مملكة لاتينية ، كان لزاماً عليهم أن يحافظوا عليها . ومن ثم بدأت سياسة الإنشاء والبناء بنشاط على أيام حكم الملك بلدوين الأول (١١٠٠ — ١١١٧) ، تلك السياسة التى استمرت نحو مائتى سنة .

المرحلة الأولى :

كان حصن صافيتا — الحصن الأبيض[٣] أول المعاقل التى شيدها الصليبيون

---

(١) فليب حتى : لبنان فى التاريخ ص ٣٥٦ — ٣٥٨ .

(٢) الإدريسى : طبعة جلد ميستر ، ص ١٦ — ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ .

(٣) Safet-Chastel Blanc

(١١٠٢ م .) ، ولذلك لأجل السيطرة على مخاضة نهر الأردن فى أقصى الشمال من سورية[١] ثم شيدوا قلعة تورون (Toron) عام ١١٠٧م . التى تشرف على الطريق الموصلة بين صور على الساحل ودمشق . ثم قلعة الشقيف[٢] أقوى الحصون السبعة التى شيدت لحراسة حركة الحج بين يافا وبيت القدس . وقلعة الحبيس جلدق ذلك المعقل الكهف لمراقبة نهر اليرموك . وقلعة الشوبك[٣] التى شيدت حول عام ١١١٥ جنوب البحر الميت لتهديد المواصلات الصحراوية بين مصر ودمشق . وقلعة سكانا ليون (١١١٦ م) جنوب صور على الساحل. وأخيراً قلعة الجريه[٤] التى تشرف على شمال خليج العقبة فى البحر الأحمر .

وفى أوائل القرن الثانى عشر احتل الصليبيون قلعة صهيون — البيزنطية الأصل — فى جبل العلويين ، وكانت تستر المداخل الجنوبية الشرقية المؤدية إلى أنطاكية وجعلوا منها قلعة منيعة لما أضافوه إليها من الأبراج والأسوار والخنادق .

ولقد كانت قلاع الصليبيين فى هذا الطور (أوائل القرن الثانى عشر) صغيرة البناء كقلعة بلفور[٥] .

كان أهم ما يميز طابع القلاع فى تلك المرحلة ، استخدام الحصن النورمانى المربع ، وبناء سور بسيط تدعمه الأبراج المربعة الموزعة على مسافات طويلة نسبياً وذات نتوءات واضحة . وفى هذه المرحلة أيضاً يمكن القول بأن الصليبيين استفادوا بما وجدوه فى البلاد من القلاع البيزنطية[٦] علاوة على ما نقلوه معهم من الغرب من

---

(١) يوجد قول آخر بأن أول قلعة يمكن تأريخها هى قلعة الكونت ريمون التى أقاموها على جبل الحاج عام ١١٠٤م ، لكى تكون مقراً لرئاسة جيشه ، وذلك أثناء انهماكه فى حصار طرابلس ، ومن المحتمل أن تكون قلاع أمراء الجليل فى طبرية وتورون قد شيدت فى نفس العصر .

(٢) Chastel Arnoul

(٣) Montreal

(٤) Ile de Graye

(٥) Belvoir

(٦) كانت الأسوار وأبراج السور من أهم ما تميزت به القلاع البيزنطية والتى اقتبسها الفرنج فى حصونهم .

أساليب البناء الحربية . وكما رأينا فقد واكب وصول الصليبيين إلى فلسطين العصر الذى رأى فيه العرب الأبراج الأولى (Keeps) ، ولذلك فقد عرف الفرنج الاستفادة باستخدام الحصن النورمانى المربع إلى أبعد حد ، وليس هناك أدنى شك فى أن الصليبيين تأثروا بتقليد حصون البيزنطيين الذين كانوا أحياناً يشيدون فى قلاعهم (كما كان الحال فى نيقية ودارا) برجاً واحداً يمتاز بضخامته ومنعته عن الأبراج الأخرى . . وقد عاين الفرنج عدداً كافياً من القلاع فى بلادهم .

وتلك الأبراج القوية التى بدأ الصليبيون يشيدونها فى صافيتا[1] وكرك مؤاب وصهيون وجبله وعكار وفى أماكن أخرى ، كانت تتألف غالباً من طابقين وشرفة (terrace) تعتبر من المتانة التى لم يسبقها مثيل فى العمارة العسكرية إلى القرن السابع عشر . فقد كانوا يشيدون تلك الحصون فى بادىء الأمر فى أسهل مكان دفاعى فى القلعة ، ولكنهم بعد التجربة وجدوا أن خير مكان يشيدن فيه هذا البرج هو المكان الذى يتطلب الدفاع فيه أقوى أعمال التحصين . وبناء على هذا الاعتبار وضعت أبراج مربعة منيعة فى أقوى أعمال الدفاع فى المملكة اللاتينية — وهى حصون صهيون (Saone) والصبيبة والمبانى القوية التى شيدت فيما بعد فى الكرك والمرقب والبرجان الكبيران فى قلعة الحاج فى أنسب الأماكن فى القلاع — أى أشد المناطق خطراً فى القلعة .

والبرج المربع يعتبر أهم السمات البارزة فى الصليبية الأولى ، وبالرغم عما يمتاز به من المتانة فله مساوىء خطيرة . وقد وضحت تلك العيوب فى حروب الحصار المتعاقبة فى الأرض المقدسة ، كان فى أول الأمر سلاحاً إيجابياً ، ولم يكن مبناه يسمح إلا لحامية محدودة العدد . ولم يكن باب البرج الوحيد (لأجل أسباب الأمن والوقاية) يسمح للحامية بالانسحاب عندما تضطر الأحوال . ولقد قيل إن البرج يستطيع الدفاع عنه جندى واحد . وقد أشار ذلك لورنس[2] فقال إن إثنين فقط يستطيعان محاصرة البرج بنجاح . وذلك إذا وقف جندى واحد عند كل ناحية من ناحيتى الباب لمنع إنطلاق الجنود من الداخل . كما أن هناك مساوىء فنية أخرى تلازم كلا من البرج

---

(١) Chastel Blanc

(٢) المغامر البريطانى الذى اشتهر بأعماله فى شبه الجزيرة العربية خلال الحرب العالمية الأولى.

المربع وبرج السور المربع فهما معرضان من زواياها (أركانها) للغم . فضلا عن أن شكلهما لا يسمحان لوقايتهما التامة بواسطة النيران الحاكمة .

وقد دعا الضعف المتوارث للحصن النورمانى والبرج المربع فى السور ، فى أواخر القرن الثانى عشر إلى التخلى جزئياً عن الشكل المتبع وإلى إحداث تغييرات هامة فى عمارة القلاع الصليبية ستتضح جلية فى المرحلة الثانية .

المرحلة الثانية :

وفى خلال حكم الملك بلدوين الثانى (١١١٨م — ١١٣١م) تم الإستيلاء على بانياس وتحصين قلعة الصليبية فوق جبل الشيخ (Hermon) الذى تكسيه الثلوج فى الشتاء ، وذلك لغلق الطريق بين دمشق وأعالى نهر الأردن . ثم نشطت حركة البناء والتعمير بصورة واضحة على أيام فولك أوف أنجو (١١٣١ — ١١٤٤م) ففيما بين ١١٣٧و١١٤٢ شيدت حلقة قوية من القلاع فى الجنوب الغربى من عسقلان تضم قلعة الحارس الأبيض [١] (تل الصفى) وابلين [٢] وبيت جبلين . والمعروف أن عسقلان هذه كانت آخر المرافىء التى بقيت فى قبضة المسلمين . وكان غرض « فولك » من تشييد تلك الحصون قفل الطريق من مصر إلى فلسطين .

وفى عام ١١٣٩ بدأ الفرنج يشيدون قلعة بوفورت [٣] (شقيف أرنول) المنيعة على أحد الجبال المشرفة على نهر الليتانى وذلك ليتحكموا على أحد مخانقه الضيقة ، وبعد أربع سنوات شيد الصليبيون كرك مؤاب فيما بين ١١٤٠ — ١١٤٣ شرق البحر الميت وهى تمتاز بموقعها العسكرى وتعد نموذجاً طيباً فى أسلوب التحصين ، وقد شيدها باين النابلسى رئيس سقاة الملك فولك . وفى تلك السنين تسلم فرسان طائفة الإسبتارية حصن الفرسان (الأكراد) من الملك [٤] .

---

(١) Blanche Garde

(٢) شيد رجال الاسبتارية قلعة ابلين (يبنا) عام ١١٤١م .

(٣) تبعد بوفورت (بلفورت) نحو ٢٤ ميلا من بيروت ، انتزعها السلطان الظاهر بيبرس من الصليبيين فى ١٥ أبريل ١٢٦٨ (Beufort) .

(Crak des Chevaliers

وينسب إلى قلاع هذه المرحلة قلعة بلفوار[١] وتعرف باسم كوكب الهواء ، شيدها فولك عام ١١٤٠ فى السنة التى شيدت فيه قلعة صفد فى الجليل العلوى ، وقد بنيت على الأسلوب البيزنطى ، ويحيط بها سور خارجى يكاد يكون مربع الشكل تقريباً ، وتدعمه الأبراج ويقوم فى وسطها حصن عال كان يؤلف فى الواقع قلب الدفاع ، وقد جمع أسلوب البناء بين المتانة والمنعة .

ويعتبر انتقال واجب الدفاع عن حصن الأكراد (الفرسان) إلى طائفة الاسبتارية حدثاً هاماً وذلك من ناحية الترتيبات الدفاعية فى مملكة اللاتين وذلك فى حوالى منتصف القرن الثانى عشر . ذلك لأن تصميم هندسة الحصون وبناءها كان قد بلغ مستوى رفيعاً من ناحية الضخامة ، بحيث لا يستطيع السيد الإقطاعى مهما كان غنياً أن يتكبد الإنفاق على البناء المطلوب . ولذلك انتقلت تدريجياً شئون الدفاع عن الأرض المقدسة إلى الطوائف العسكرية القادرة . ومن ثم وقع على عاتق الاسبتارية بناء حصن إبلين فى عام ١١٤١ م ، ثم عسقلان بعد الاستيلاء عليها عام ١١٥٣ م . وقلعة بلفوار التى تحكم أعالى نهر الأردن قبل عام ١١٦٨ ، وقلعة عكار فى لبنان الشمالى فى عام ١١٧٠ م ، وقلعة المرقب التى بين طرابلس واللاذقية فى عام ١١٨٦ م .

ولم يكن بناء قلعة المرقب الاسبتارية قد تم عندما انتهت معركة حطين فى عام ١١٨٧ ، ومن ثم حشدت جميع القوات التى أمكن الحصول عليها لمقابلة جيوش صلاح الدين عند طبرية ، وكانت نتيجة تلك الأعمال الحربية المتعاقبة أن نقص عدد رجال الحاميات فى القلاع .

وهكذا نرى أنه كان من عواقب نقص عدد الرجال فى القلاع ، أن ازداد عبء الدفاع أمام هجمات المقاتلين المسلمين ، ولدينا الكثير من أحداث الحصار الرائعة فى قلاع الكرك بمؤاب والشوبك (مونتريال) وبوفور وصافيتا ، فقد استطاع رجالها مقاومة الحصار أكثر من عام ضد قوات تفوقهم عدداً وعدة .

ونلاحظ أن أكثر القلاع التى استولى عليها صلاح الدين ومنها كرك مؤاب ،

---

(١) Belvoir

لم يستردها الصليبيون مرة ثانية . ولكن عندما جاءت الحملة الصليبية الثالثة بامداد من الرجال (١١٨٩) عاد الأمل إلى اللاتين ، ونشطت حركة بناء القلاع ثانية .

أنه قبل حوالى ١١٧٠ م لم يشيد الفرنج أية أبراج مستديرة كبيرة . وبعد معركة حطين (١١٨٧) وباستثناء قليل ، كانت أهم حصونهم الكبرى تعتمد على الأبراج المستديرة ذات النتوء أو البروز الكبير — تلك الأبراج المستديرة التى تسمح بكمية كبيرة من النيران الجانبية . وفى الوقت الذى حافظ فيه الصليبيون على طراز البرج القديم بدأوا يتخذون الطراز المعمارى المستدير ، ومن ثم أخذ هذا يتطور إلى حصن متين يضم عدة أبراج متصلة بعضها ، وسمح هذا الشكل ـ التطور الجديد ـ إلى زيادة سرعة حركة الجنود ومضاعفة نشاط هجومهم ، وقد أدى هذا التطور فى الأسلوب البنائى إلى ظهور الحصن ذى الأسوار المتكررة المشتركة المركز وهو المعروف concentric fortification .

وأصل هذا الأسلوب فى القلاع الصليبية التى لها نطاق مزدوج من الأسوار غير محقق ، وصحيح أن الإمبراطورية الشرقية قد استخدمت هذا النوع من الاستحكامات ذات الحصون المتداخلة فى بزنطيوم وغيرها ، كما استخدمها الخليفة المنصور عند بناء الأسوار المستديرة فى تشييد بغداد فى القرن الثامن ، وفى انجلترا على أيام الرومان والسكسون عرفت بعض الاستحكامات الترابية من هـذا النوع (concentric earthworks) ، وما زالت مخلفات هذه الاستحكامات تشاهد إلى اليوم فوق الكثبان الرملية الإنجليزية .

ومن الممكن أيضاً أن تكون القلعة ذات الحصون المتداخلة قد تطورت من البرج الذى على شكل المحار (Shell-keep) ، وهو عبارة عن قلعة وحصن (Keep-fortress) شيد وسط فناء ، وقد أثبت هذا التخطيط فى أوروبا أنه أحسن ما يستعاض به عن الحصن النورمانى المحدود المهمة ، ومن الحصن الذى على شكل المحار جاء سور الستارة الذى ضم مساحة أكبر عرفت باسم بيلى (Bailey) .

وعلى أية حال فمهما اختلفت الآراء فى منشأ هذا الطراز المعمارى : أهو شرقى أو غربى فانه ازدهر على أيام الصليبيين ازدهاراً مدهشاً واضحاً . نراه أمامنا إلى

اليوم ظاهراً جداً فى قلعتى المرقب وحصن الأكراد ، وهو عنوان الفخامة والجمال فى وقت واحد .

وقد واكبت هذه الثورة فى التخطيط عدة تغييرات فى طريقة البناء : منها استخدام الحجارة المنحوتة التى لا يتيسر بسلالم الحصار التغلب عليها لأنها لا تمسك بها ، وتطورت طريقة عمل المزاغل (فتحات السهام) وصارت تتجه منحنية إلى الأسفل ، وبذلك تيسر الرمى إلى أسفل القلعة . ولم يقتصر عمل تلك الفتحات على الشرفة العليا أو الطوابق المرتفعة فى الحصن ، بل عممت أيضاً فى الطوابق المنخفضة إلى مستوى الأرض . وتطور أيضاً عمل الشربيات الحجرية (Machicolation) وذلك ببنائها من الحجارة بدلا من الخشب كما كان الحال فى أوروبا ، وذلك لندرة الأخشاب فى سورية . كما طرأ على مداخل القلاع وأبوابها أساليب خداعة لتضليل المهاجمين ، ولنضرب لذلك مثلا : فالمحاصرون إذا أرادوا اقتحام مدخل حصن الأكراد .. كان عليهم أن يجتازوا ممراً مقبى ويدورون ثلاث مرات وربما قابلهم بعد ذلك باباً شبكياً من الحديد يمنعهم عن اقتحام البوابة الكبرى .. وعليهم بعد ذلك أن يعملوا جادين لاجتياز أربعة أبواب أخرى أقيمت فوقها الشربيات الحجرية . ولأجل تيسير التحرك والعمل لرجال الحامية ، فقد لجأوا إلى استخدام عدد من الأبواب السريه والخفية (Postern gates) . وكانت تلك الأبواب يخفى أمرها فى بعض الأحيان كما كان البيزنطيون فى الغالب يخفون أبواب قلاعهم ، وذلك فى المكان الذى تأخذ فيه ستارة السور فى الانثناء بشكل زاوية قائمة ، وكانوا يختارون مواضعها بحيث أن جماعة الجند المهاجمة عندما تتخذ طريقها نحو الباب السرى تعرض يسرتها أو أجناب دروعها للعدو .

المرحلة الثالثة :

وبعد انكماش مساحه الأراضى الصليبية فى القرن الثالث عشر نتيجة لاستيلاء المسلمين على أراضى الأفرنج ، لم يشيد هؤلاء إلا القليل من القلاع الجديدة باستثناء قلعة مونتفرت[1] أو القرين (١١٢٧ — ١١٢٩ م) والتى شيدت فى موقع جديد

(١) Monsfortis

ومنيع يشغلها مقر رئاسة الفرسان التيتون[1] علاوة على أعمال التحصين الهامة التى شرع فى إقامتها بعد عام ١٢٤٠ م فى صافيتا شمال طبرية ، وفى قلعة بوفورت التى كان الأفرنج قد شيدوها من قبل ، ثم استولى عليها المسلمون واستعادها الصليبيون بعد ذلك . وانتقلت العناية إلى تحصين قلاع الساحل، ذلك لأن المرافىء يستطيع المسلمون مهاجمتها ، ومنها يتمكن الفرنج مراقبة البحر ، ويسر كل هذا للفرنج التمسك بالسهول الضيقة المطلة على البحر ، ولذلك رأينا الملك ريتشارد يعيد تحصين يافا قبل رجوعه إلى وطنه فى عام ١١٩٣ م ، ثم شيدت قلعة صور حوالى عام ١٢١٠ م ، وشيدت قلعة الحاج هى حصن الداوية المنيع عام ١٢١٨ ، كما بنيت قلعة الجزيرة فى صيدا عام ١٢٢٨ . وقد نشطت على أيام الملك لويس (سنت لوى) حركة تحصين واسعة فى المرافىء على طول امتداد الساحل ، وعلى أية حال فقد استمر البناؤون الفرنج يشيدون ويعمرون حتى الساعة الأخيرة ، ساعة فراقهم سورية .

هكذا رأينا فى عرض عام حصون الملكة اللاتينية تزيد حصناً بعد حصن ، عقب سقوط بيت المقدس فى قبضتهم حتى انتهاء دولتهم وسقوط عكاء فى يدى المسلمين (١٢٩١ م) .

ويمكن تقسيم تلك القلاع حسب الأهمية العسكرية (الوضع الحربى) وربما من الناحية الجغرافية أيضاً إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

١ — حصون لتأمين طريق الحج المؤدى إلى بيت المقدس من يافا أو عسقلان :

كان الغرض الظاهر من الحملة الصليبية الأولى هو تحرير الأماكن المقدسة من السلاجقة . فلما أحرز هذا الهدف عكف الصليبيون على تأمين حركة الحج من الساحل إلى كنيسة القيامة . ولأجل هذا أنشأوا سبعة معاقل رئيسية بين يافا وهى المحطة الأولى لإنزال رجالهم الذاهبين إلى القدس ، وفى عام ١١١٨ م أناطوا برجال طائفة الداوية واجب حراسة الطريق المذكور . وكان أهم تلك المعاقل شقيف أرنول[2] . أما المعاقل الأخرى فى هـــذه المجموعة فلم تـكن على شىء كبير من الضخامة .

---

(١) تعرف أيضاً باسم قلعة ستاركنبورج Starkenburg

(٢) Chastel Arnoul أو بلفورت ، ويعرف عند العرب بقلعة الشقيف .

٣ — تحصين المدن الساحلية :

أول المدن الساحلية من الشمال هى أنطاكية . وكانت حصونها البيزنطية منيعة ، ولم يزد عليها الصليبيون شيئاً يذكر . ثم وجه هؤلاء عنايتهم لتحصين معظم المدن الساحلية الممتدة بين عسقلان فى الجنوب إلى ساحل آسيا الصغرى فى الشمال . وقد وجد الصليبيون فى معظم تلك المرافىء والمدن حصوناً بيزنطية وأسواراً عربية كانت أقيمت قبل وصولهم إلى سورية (ماعدا يافا) ، وعلى ذلك كانت أعمال الصليبيين عبارة عن إمتداد أو توسع أو تحسين فحسب . وقد اجتنبوا إقامة القلعة فى قلب المدينة كما كان يفعل العرب ، وهؤلاء أسوة بالرومان . وبدلا عن ذلك كانوا يشيدونها فى ركن من أركان المدينة أو بعيداً عنها مع إشرافها على الأرض المكشوفة ولذلك استقلت القلعة من ناحية تأديتها الواجب الدفاعى عن المدينة . ولا يخفى أنه كان للمدينة أسوارها وأبراجها الخاصة . فإذا سقطت المدينة فى قبضة العدو استطاع رجال القلعة القيام بواجب الدفاع كوحدة مستقلة ، وفى الوقت نفسه تستطيع أن تستمد العون والمدد والنجدة من البلاد المجاورة ، ومن أمثال تلك القلاع :

حصون طرطوسة وجبلة وبيروت وقلعة البحر فى صيداء[1]، وقلعة صور (والتى كان يمكن عزلها بغمر خندقها بمياه البحر) كانت تتمتع باستقلال مماثل ، لأنه عندما تسقط المدينة (أى صور) فى قبضة العدو كانت تستطيع القلعة الإتصال بواسطة البحر .

ولم يبق معظم أعمال تحصين المرافىء التى أقامتها الدولة اللاتينية لأسباب كثيرة . لقد مر عليها الكثير من أحداث القتال ، وكثيراً ماتبادلتها القوات المتحاربة منذ القرن الثالث عشر ، علاوة على ما قامت به معاول الهدم والتخريب ، ولم يبق اليوم من منشئات اللاتين الحربية فى صور أو أسوار يافا (ذات الـ ٢٤ برج) التى هدمها السلطان بيبرس ، أو بيروت التى اشتهرت قلعتها بفسفسائها وقاعاتها الرخامية . تلك أثارت دهشة ويلبراند فى القرن الثالث عشر[2]. ولم يبق شىء هام فى قلعة طرابلس ، أما قلعة عكاء فقد ضاع معظم معالم البناء الصليبية .

---

(١) Chateu de mer

(٢) Wilbrand of Oldenburg

أما قلعة البحر فى صيداء فلا تزال تحتفظ بأطلالها الصليبية . كذلك الحال فى برج جبلة ، على عكس ما تبقى فى طرطوسة : وقلعة المعبدين ذات البرج المنيع وأسوار دفاعاتها المزدوجة ، وجزء من سور المدينة والكاتدرائية .

وفى نيفين[1] (Nephin) حيث حول اللاتين قطعة جبلية فى البحر إلى جزيرة لم يبق منها سوى أكوام من الحجارة .

٣ — القلاع الاستراتيجية :

والنوع الثالث من الحصون (الاستحكامات) هى القلاع الاستراتيجية الكبيرة التى شيدت لحماية مدينة هامة أو موقع رئيسى ، ومعظم هذا النوع شيده الصليبيون فى داخل سورية . وواجبها الرئيسى وقاية الجنب المهدد بالهجوم لدولتهم . وقد أقيمت هذه القلاع إما عند مخاضة رئيسية أو مضيق ، ولذلك كانت تبنى فى مكان موحش منعزل تسوده العزلة من كل جانب . فإذا بقى هذا النوع إلى اليوم محتفظاً بأهم سماته فذلك راجع إلى طبيعة الموقع . ولم تفقد تلك القلاع أهميتها على مر السنين بل إنها حافظت عليها لان طبيعة الأرض لم تتغير .

وتعتبر تلك القلاع الاستراتيجية الكبرى خير تعبير للعمارة العسكرية الصليبية فى القرون الوسطى ، وقد تمكن رجال الآثار والتاريخ بفضلها أن يدركوا كفاءة ومهارة بنائيها وذوق مهندسيها . ونذكر من تلك القلاع :

حصن الأكراد ، المرقب ، كرك مؤاب ، صهيون ، بوفورت (الشقيف) ، قلعة الحاج أو أثليت ، الصبيبة جنوبى جبل الشيخ . ونضيف إلى تلك إسمى قلعتين من ذات الطراز الكبير ، هما تورون[2] وصافيتا . وقد خربهما المسلمون فى زمن ما .

العوامل الجغرافية واختيار المواقع :

ولا شك أنه كان للعوامل الجغرافية أثر كبير فى اختيار مواقع تلك القلاع الكبيرة

---

(١) اختفت هذه القلعة اليوم تحت مياه البحر ، وقامت بالقرب منها قرية آنفة ، وهى جنوبى مدينة طرابلس .

(٢) Safita — Ioron

وتوزيعها فى سورية ، ونظرة فاحصة للخريطة للبقاع التى تقع بين صيداء وأنطاكية تبين لنا أهمية المواقع التى شيدت فوقها تلك القلاع . فعند جبال لبنان الشاهقة التى تناطح السحاب إلى ارتفاع قد يصل إلى عشرة آلاف قدم ، وجبل العلويين فى شمال لبنان أيضاً (مع أنه أقل ارتفاعا) يتمثل التوحش والوعورة .. اتخذت طائفة الاسماعيلية معاقلهم المنيعة ومنها قلعة القدموس ومصياف ، وقد كان هؤلاء فى وقت ما من حلفاء الصليبيين .

ومن صيداء إلى أنطاكية كان من اللازم بناء القلاع عند الممرات القليلة العدد التى تصل بين داخلية البلاد والساحل . ولقد شيدت قلعة صهيون عند الطرف الشمالى لجبل العلويين والمرقب فى المكان الذى تنحرف فيه سلسلة الجبال عند الساحل مؤلفة أخدوداً ضيقاً بين الجبال والبحر . وحصن الأكراد (الفرسان) ، والقلعة البيضاء وعكار وغيرها . . كل منها فى مكان تتحكم فيه على ثغرة بين الطرف الجنوبى لجبل العلويين أول معاقل لبنان . ولم يكن من اللازم بناء قلعة كبيرة على طول امتداد سلسلة جبال لبنان ذاتها . وأمامنا قلعة بوفور عند نهاية تلك السلسلة الجبلية ، وهى تحرس الممر الذى يخرج منه نهر الليتانى فى طريقه إلى البحر .

وفى فلسطين ، فى الجنوب ، حيث تعتبر الدفاعات الطبيعية إلى حد ما قليلة وغير مؤثرة ، أمكن استعاضة هذا الضعف بتشييد قلاع كثيرة ، وسنذكر بعضها . كان هناك خط دفاعى أولى للدفاع فى الأرض الشبيهة بالصحراء فى شرق نهر الأردن :

الصبيبة فى جنوب جبل الشيخ للتحكم وكشف أى تقدم يرد من جهة دمشق .
وقلعة كرك مؤاب فى شرق البحر الميت وعلى مقربة منه .

والشوبك فى صميم صحراء الأردن وشمال خليج العقبة .

أما خط الدفاع الثانى فكان يقع غرب نهر الأردن ويعتمد على قلعتى تورون وصافيتا ، ويشرف بالتتابع على الطرق المؤدية من أعالى الأردن إلى صيدا أو عكا ، وعلى قلعة بلفوار التى تشرف على المخاضة الهامة جنوب طبرية .

وإلى جنوب وادى نهر الأردن والبحر الميت أنشئت عدة حصون منيعة جيدة : بينما شيدت قلعة الحاج على ساحل البحر حيث ترتطم المياه بأسوارها من ثلاثة أجناب .